المحاضرة الرابعة: الأدب والمجتمع

تمهيد:

تنشأ اللّغة وتتطور في المجتمعات التي يُطلق عليها الجماعات اللّغوية، وهي مجموع الأفراد الذين يتشاركون التواصل بلغة معيّنة، وكذلك الأدب يتشكل بين أفراد المجتمع فنجد أنّ الأدب الذي ينتمي إلى مجتمع ما يتشارك بعض السمات التي قد تجعله متفرداً عن أدب مجتمع آخر. و"الأدب مؤسسة اجتماعية أداته اللّغة وهي من إنشاء المجتمع والوسائل الأدبية التقليدية كالرمزية والعروض، اجتماعية في صميم طبيعتها. إنّها أعراف وأصول لا يمكن أن تبزغ إلاّ في مجتمع"[1].

1. الأدب والمجتمع:

رغم أنّ الأدب ينشأ في المؤسسة الاجتماعية إلاّ أنّه يتميز بقدر من الاستقلالية فلا يكون دائماً انعكاسا لحالة المجتمع. وبالتالي لا يمكن أن نصنف الأدب وفق الحقب التاريخية للمجتمع، ومن الأخطاء الشائعة عند الدارسين تصنيف عصور الأدب العربي إلى: (عصر جاهلي، صدر الإسلام، أموي، عباسي، مماليك، حديث، ومعاصر). وهو تصنيف تاريخي للحكم أكثر منه للأدب، وحتى عصر المماليك الذي يُطلق عليه كثيرون تسمية عصر الضعف نجد في هذه التسمية مغالطة كبيرة فالتاريخ يشهد أنّ في هذا العصر كانت أعمال فنية راقية وإبداعات خالدة، إلى جانب ذلك "لا تقوم الأعراف الجمالية على الأعراف الاجتماعية، فهي لا تشكّل حتى جزءاً من الأعراف الاجتماعية إنّها أعراف اجتماعية من نمط معين وتترابط في صميمها مع بقية الأعراف"[2]، كما أنّ تطوّر الأدب لا يرتبط بالضرورة بتطوّر المجتمع أو انحطاطه وخير مثال على ذلك أنّ اليونان أنتجت من الإبداعات والفنون ما يفوق تطورها العسكري والاقتصادي، بينما الرومان الذين كان لهم النفوذ على معظم العالم وجابت جيوشهم الآفاق وبلغوا من الرقي مبلغاً كبيراً إلاّ أنّ فنونهم وفلسفتهم وحتى أدبهم كان في شدة

---

[1]. رينيه ويليك، أوستن وارين، نظرية الأدب، تر: محي الدين صبحي، ط02، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1981، ص97.

[2]. المرجع نفسه، ص97.

التواضع، كما أنّ **وليام شكسبير (Shakespeare William)**[1] الذي شغل العالم بأعماله الخالدة كان في عصر تعيش فيه أوروبا أسوأ مراحل انحطاطها.

2. الأديب وعلاقته بالمجتمع:

يتأثر الأديب بما حوله ويتفاعل مع مجتمعه و"ما دام كلّ كاتب عضواً في مجتمع، فيمكن أن يُدرس ككائن اجتماعي، وبالرغم من أنّ سيرته مصدر رئيسي، فيمكن أن توسع مثل هذه الدراسة بحيث تشمل كلّ المحيط الذي أتى منه وعاش فيه، وسيكون من الممكن أن نجمع معلومات عن المنشأ الاجتماعي للكاتب، وخلفية الأسرة والوضع الاقتصادي"[2].

مع أنّ للأصول الاجتماعية للكاتب وظروف نشأته تأثير في تشكل أدبه بيد أنّ ذلك يكون بشكل غير مباشر و"لا تلعب الأصول الاجتماعية للكاتب إلاّ دوراً ثانوياً في المسائل التي يثيرها مركزه الاجتماعي وولاءه وأيديولوجيته"[3]، فالتوجه الأيديولوجي هو الذي يكون له كبير الأثر في تشكل أدب الكاتب وتوجهاته كما أنّ "انتماء الكاتب الاجتماعي واتجاهه وأيديولوجيته، لا يمكن أن تُدرس فقط من كتاباته بل في الأغلب أيضا من الوثائق غير الأدبية المتعلقة بسيرته. فالكاتب مواطن وله رأي في المسائل ذات الأهمية الاجتماعية والسياسية، كما أنّ له دوراً في قضايا عصره"[4].

لكن ما يجب التشديد عليه هو عدم الخلط بين ما هو أدب وما هو غير أدب؛ فيجب الفصل بين ما أنتجه الأديب وما عبّر عنه في أعماله الفنيّة وما عبّر عنه في مواقف أخرى ومقامات حياتية لا علاقة لها بالأدب، كما "لا يجوز بأي حال أن تُخلط التصريحات والقرارات والنشاطات بالتضمينات الاجتماعية الفعلية الموجودة في أعمال الكاتب"[5]، والأدب يتسم بقدر من الاستقلالية عن حياة الأديب.

---

[1]. وليام شيكسبير: شاعر وكاتب مسرحي انجليزي، ولد سنة 1564 وتوفي سنة 1616، كتب أكثر من ثلاثين مسرحيّة، أكثرها شهرة : مسرحية روميو وجولييت، عطيل، هاملت، وهي مسرحيات عالميّة.

[2]. رينيه ويليك، أوستن وارين، نظرية الأدب، ص99.

[3]. المرجع نفسه، ص100.

[4]. المرجع نفسه، ص100.

[5]. يُنظر، المرجع نفسه، ص100.

تربط بين الأديب والمجتمع علاقة جدلية معقدة قائمة على التأثير والتأثّر و"الكاتب لا يتأثر بالمجتمع فقط بل يؤثر فيه، والفن ليس مجرّد إعادة صنع للحياة فقط وإنّما تكوين لها أيضاً. فقد يصوغ الناس حياتهم حسب نماذج لأبطال وبطلات من صنع الخيال"[1]، والأدب مزيج من الواقع والخيال فهو يستمد ويستلهم من المجتمع ويعبّر بتوظيف الخيال.

يميل كثير من الباحثين إلى اعتبار الإنتاج الأدبي وثيقة اجتماعية "فأكثر الاتجاهات شيوعاً في موضوع العلاقة بين الأدب والمجتمع دراسة الأعمال الأدبية كوثائق اجتماعية على افتراض أنّها صور الواقع الاجتماعي"[2]، حيث يرى أنصار هذا الاتجاه أنّ الأدب هو تعبير عن المجتمع وفهمه يكون بربطه بالواقع الاجتماعي.

تسهم المعرفة بالمجتمع وما يحيط به من ملابسات وما يكتنفه في مدّ الباحث بالأدوات اللاّزمة لدراسة الأدب و"لا يستطيع سوى الشخص الذي يملك معرفة بنية المجتمع من مصادر أخرى غير المصادر الأدبية الصرف، أن يكتشف فيما إذا كانت نماذج اجتماعية معينة وسلوكها قد أعيد إنتاجها في الرواية وإلى أيّ حد... أمّا العنصر الخيالي المحض والملاحظة الواقعية وما هو فقط تعبير عن رغبات الكاتب، فيجب أن يُفصل بعضها عن بعض في كلّ حالة بطريقة ماهرة"[3].

تتدخل الظروف الاجتماعية في تحديد بعض القيم الأدبية وتسهم في تشكيلها و"لا بد أن يعترف المرء بأنّ الوضع الاجتماعي يبدو وكأنّه يُحدد إمكانية تحقيق قيم جمالية معينة وليس القيم ذاتها. ونستطيع أن نحدد بخطوط عامة الأشكال الفنية المحتملة في مجتمع معين والأشكال غير الممكنة فيه، ولكن من غير الممكن أن نتنبأ بأنّ هذه الأشكال الفنية ستظهر فعلاً"[4]؛ فالأدب يتميّز بتطوره الخاص والمتفرّد ففي الأدب الأسباب نفسها لا تؤدي دائما إلى

---

[1]. رينيه ويليك، أوستن وارين، نظرية الأدب، ص105.

[2]. المرجع نفسه، ص106.

[3]. المرجع نفسه، ص108.

[4]. المرجع نفسه، ص110.

النتائج نفسها على عكس العلوم التجريبية، فلا يمكن التنبؤ بنشأة الجنس الأدبي أو تطوره في حقبة زمنية ما.